مجموعة مؤلفين

دور المثقف في التحولات التاريخية

المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الفصل الثامن

هل من حاجة اليوم إلى مثقف هُوَوي؟
بحث في تراجع الأدوار التقليدية ونظر في البدائل

علي الصالح مولى

قام عنوان هذا البحث على تساؤل لا على مسلّمة، وذلك من أجل أن يكتسب طابعه الاستكشافي والإشكالي في آنٍ. وهو إذ ينهض على السؤال، فإنه يروم الاشتغال بالمعطيات والسياقات والأطاريح التي عُنيت بالمثقف، واستدراجها إلى منطقة المراجعة والتقويم. ولما اختار عبارة «المثقف الهُوَوي» على الرغم من اللبس الذي قد يَشوبها، فرَجح أن هذه العبارة تستطيع أن تكون مساحة تتقاطع فيها تعريفات وتصنيفات كثيرة، كما تَصلح لتتعايش في داخلها مصطلحات من قبيل الملتزم والعضوي والثوري والعمومي. وحين يجعل «الهُوَوي» قاعدته الأساسية، فهذا يعني أنه ينهض على توجه نحو تجميع العناصر التي يتركب منها «جسم» المثقف. فإذا تشكل استقل بوجوده وكَون مقومات هويته. وهو، أخيرًا، يطمح إلى أن يرتقي بهذه العبارة إلى مرتبة الاصطلاح من دون أن يدعي ذلك.

«المثقف الهُوَوي»، إذًا، مشروع مصطلح غرضه أن ينتشل المثقف من مدارات التوظيف والتشغيل للحساب الحزبي أو المذهبي أو الطائفي، وأن يحرره من الارتهان بمقاربات تستثمر دوره في تعزيز مواقع فاعلين آخرين. ومن دون مزيد من التوسع، يرى البحث أن «المثقف الهُوَوي» فاعل للحساب الخاص،

لا لحساب الآخَر. لكنه، وهو يختار الاهتمام بـ«الهُوَوية» من أجل التعامل مع المثقف من حيث انتمائه إلى ما يتميز به من غيره من الفاعلين، يبقيه نقطة انطلاق. فاهتمامه ينصب في المقام الأول على درس معقولية الانتقال من زمن المثقف إلى زمن الخبير.

لما كانت مسألة المثقف مُتحولة بما يطرأ على المجال الذي تقع فيه من تحولات، رأى هذا البحث أن يعتمد في تقليب القضايا التي ينظر فيها منهجًا تاريخيًا وظيفيًا يُؤمن تحليل الظاهرة وهي تنمو وتتطور، ويرصد التحولات التي تطرأ عليها وآثارها في محيطها، ومنهجًا آخرَ تاريخيًا نقديًا يعالج قراءات الظاهرة برد ما تُصدره من أحكام إلى سياقاتها.

من حيث إن مركز الاهتمام في البحث هو النظر في احتمالية انتهاء زمن المثقف الهُووي، كان لا بد منهجيًا ومعرفيًا من التقاط العلامات الدالة عليه من جهة، والتفطن إلى البدائل المحتملة من جهة ثانية. ولهذا، سينصرف البحث في المبحث الثاني إلى رصد سياقات التحول أكثر من الوقوف على الثابت من المعطيات والأحكام. وهذا يقتضي العبورَ من وضع الأزمة وتوصيفاتها إلى وضع تفكيك المعطيات ونقدها واستشراف البدائل المحتملة ليكون السؤال: «إلى أي مدى يمكن أن يكون 'الخبير' قادرًا على ملء الفراغ الذي تركه المثقف؟»، تأسيسًا للبحث في معقولية الزمن الجديد. في هذا الاتجاه إذًا، سيتحرك المبحث الثالث، وسينشغل بسياقات ميلاد الخبير والوظائف التي ينهض بها. ويطمح البحث إلى أن يراكم تقدمُه نقاط الافتراق الرئيسة بين عالَم المثقف وعالَم الخبير، وأن يعطي تصورًا لمشروعية انقضاء زمن المثقف وبروز زمن الخبير.

بناءً على ما سبق، ربما يحدث في النهاية ما يشبه اليقين أن الخبير بات، اليوم، ضرورة تاريخية لممارسة التفكير في قضايا العرب الكبرى. لكن، ما الإمكانات والاستعدادات التي ينبغي أن تتوافر لانبثاق زمن الخبير العربي؟ هذا موضوع ربما لا يصيب فيه هذا البحث بسهم مباشر ومُثمر، وعسى أن يكون مقدمة لأعمال أخرى.

أولًا: المثقف الهُووي
مقاربة في سياقات النشأة والدور

1 – اللحظة الدريفوسية ونشأة المثقف: بحث في تكون المجال

«إني أتهم» هي العبارة التي منحت المثقفين شهادة ميلاد[1]. لكن، ينبغي الإشارة إلى أن هذا الإعلان الذي نال ما يشبه الإجماع[2] لا يعني أن ثمة فراغًا كان العالم يهوي إليه قبل هذا التاريخ. فمن المبالغة الذهاب إلى أن المجتمعات الإنسانية لم تعرف قادة رأي ومصلحين ودعاة وهداة وفروا لها القيم الضرورية للحياة[3]. إن ما جعل هذا الحدث يكتسب كثافة رمزية استثنائية هو نشوء دائرة انتماء يندرج فيها نشاط طائفة من الناس ندبت نفسها للدفاع عن الحقيقة والعدل[4]، وهي بذلك ستصبح مكوّنًا فاعلًا في حياة المجتمعات المعاصرة.

---

(1) إميل زولا، «إني أتهم» (J'accuse)، عنوان رسالة إلى الرئيس الفرنسي فليكس فور.

(2) معظم الدراسات المهتمة بتاريخ الأفكار، وكذلك المعاجم، تعد قضية دريفوس السبب المباشر لنشأة كلمة «مثقف». انظر مثلًا: Pascal Ory & Jean-François Sirinelli, *Les Intellectuels en France: De l'affaire Dreyfus à nos jours* (Paris: Armand Colin, 1986).

(3) من الدراسات التي بحثت في تاريخ المثقف قبل دريفوس:

Jacques Le Goff, *Les Intellectuels au Moyen âge* (Paris: Seuil, 1985), et Geneviève Idt, «L'Intellectuel avant l'affaire Dreyfus,» *Cahiers de lexicologie*, vol. 15, no. 2 (1969).

يُستَحسن في هذه المسألة العودة إلى: جيرار ليكلرك، **العولمة الثقافية: الحضارات على المحك**، ترجمة جورج كتورة (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2004)، على نحو خاص، الفصل الثالث: «المثقفون بين التقليد والحداثة (عَلمنة الثقافة)»، ففيه وقف ليكلرك بكثير من العمق والطرافة على المشترك بين من يمكن أن نسميهم «مثقفي ماقبل الحداثة»، والمثقفين الذين نشأوا في صُلبها وصلب العَلمانية، كما وقف على نقاط الاختلاف الجوهرية. انظر أيضًا: عزمي بشارة، «عن المثقف والثورة»، **تبين**، العدد 4 (ربيع 2013)، خصوصًا العنصر «ملاحظة تاريخية»، والعنصر «إشكاليات»؛ وانظر كذلك: محمد عابد الجابري، **المثقفون في الحضارة العربية: محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد**، ط 2 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2000)، وعز الدين العلام، **الآداب السلطانية: دراسة في بنية وثوابت الخطاب السياسي**، عالم المعرفة 324 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2006).

(4) ما يُفيد حداثة الاستخدام أن الذين تداعَوا منتصرين لـزولا وقضية دريفوس العادلة أن أسماءهم التي كانت تظهر في عرائض مساندة تنشرها جريدة **الفجر** (L'Aurore) في سلسلة من أعدادها لم تكن الوظائفُ الملحقة بها تشير إلى أنهم «مثقفون». كانت هوياتهم المهنية تُعرف بهم (جامعي، فنان، أستاذ، مهنة حرة ...إلخ). ومن المرجح أن كليمنصو هو أول من استخدم عبارة «المثقف» لتعيين هؤلاء الذين =

«من واجبي أن أتكلم لأني لا أريد أن أكون شريكًا [في الجريمة]. فإن لم أفعل، فإن شبح ذاك الرجل البريء الذي يدفع هناك ثمن جريمة لم يرتكبها ويُسَام أشد ألوان العذاب سيلاحقني في نومي. وشأن كل امرئ شريف، سأصرخ بما أوتيت من قوة وغضب بهذه الحقيقة، أمامكم يا سيادة الرئيس»[5]. هذا مقطع من رسالة غير عادية توجه بها الروائي الفرنسي إميل زولا في 23 كانون الثاني/ يناير 1898 إلى الرئيس الفرنسي فليكس فور. وهو نص غير عادي، لا من جهة محتواه الإنساني فحسب، بل من جهة ما مثّله في التاريخ الثقافي الفرنسي على نحو خاص أيضًا. إن دريفوس، الضابط الذي اتُّهم باطلًا بالخيانة وإفشاء السر العسكري، لم يكن استثناء، فربما هناك غيره في الجيش الفرنسي وفي سواه من جيوش العالَم، حيث أسبغ وعي زولا بأنه في منزلة تُحتم عليه «الكلام» على النص ووضعه التاريخي الاستثنائي. وينطبق على إميل زولا على نحو بديع ما سيقوله سارتر عن ذاك الذي «يدس نفسه في ما لا يعنيه».

كان زولا يكتب في مسألة لا تعنيه من حيث انتمائه المهني. فالقضية المثارة موضوعها مظلمة في هيئة الأركان والقضاء الحربيين في فرنسا. وهُما من أشد المجالات انغلاقًا بسبب ما يحيط الشأن العسكري عادة من خصوصية. وما كان زولا عسكريًا فتُوجَد له الأعذار وإن استعصَت. بل كتب «في ما لا يعنيه». وهذا مؤشر أول نلتقطه لنقول إن المثقف وهو يباشر فعله «الثقافي»، لا يباشره بوصفه مسؤولًا مسؤولية إدارية أو مهنية، إنما بوصفه مسؤولًا مسؤولية أخلاقية. أما المؤشر الثاني، فنلتمسه من قوله: «من واجبي أن أتكلم». فالكلمة سلاح المثقف. إنها وسيلة فرض السلطة؛ السلطة التي تُفرَض أصلًا وابتداء بالقوة والإكراه. ولم يتكلم

= انتصروا لقضية زولا العادلة. ويبدو أن موريس باريس نجح في وقت لاحق في جعل هذا الاستخدام يعرف رواجًا كبيرًا من خلال جريدة **الجريدة** (Le Journal) اليومية الواسعة الانتشار. وربما كان يلزم بعض الوقت حتى يعبر هؤلاء عن أنفسهم بهوية جماعية يخرجون بفضلها من الانتماء المهني الفردي؛ وكان ذلك في 26 حزيران/ يونيو 1919. ففي جريدة **الإنسانية** (*L'Humanité*)، ظهر بلاغ لفئة المثقفين يعرفون أنفسهم تعريفًا هُوَويًا: «نحن خَدَمُ الفكر. ليس لنا سيد غيره».

(5) انظر نص الرسالة في:

Emile Zola, *J'accuse!: Et autres textes sur l'affaire Dreyfus* (Paris: J'ai lu, 2001).

للتوسع، انظر: Marc Olivier Baruch & Vincent Duclert (dirs.), *Justice, politique et république: De l'affaire Dreyfus à la guerre d'Algérie* (Bruxelles: Complexe/Paris: IHTP, 2002); Jean-Denis Bredin, *L'Affaire* (Paris: Fayard/Julliard, 1993), et Michel Winock, *Le Siècle des intellectuels* (Paris: Seuil, 1997).

زولا رغبة في الكلام، بل تكلم من منطلق الشعور بالواجب. وهذا يدفع إلى التقاط المؤشر الثالث، وهو أن الانخراط في هموم الآخرين وتبني قضاياهم والدفاع عنها مسؤولية (ربما تتطور هذه المسؤولية/ الواجب في نظريات السوسيولوجيا الثقافية والسياسية إلى مقالات فلسفية، مثل الالتزام والعضوية والعمومية).

جاء في الرسالة أيضًا: «ما نَدبتُ نفسي للقيام به إن هو إلا أداة ثورية لاستحثاث الحقيقة والعدالة على التحقق». وههنا يكمن المؤشر الرابع: إنه المقصد. فلكل عمل غاية؛ وغاية زولا كشفُ الحقيقة وتحقيق العدالة. وهو، بلا ريب، مقصد إنساني نبيل. إنه الدفاع عن القيم حتى لا يُحول العابثون حياة الناس إلى شقاء وحرمان. وتتكرر في الرسالة عبارة «إني أتهم» تكرارًا لافتًا (ثماني مرات)، فيدل ذلك على المخاطرة والإصرار عليها. ويتجلى من خلالها الوعي بالصعوبات التي قد تعترض المثقف وهو يمارس واجبه. فمع كل تكرار تنفتح جبهة في وجه زولا. ويسوق هذا إلى استنتاج مفاده أن المثقف مستعد لمحاربة الجميع والوقوف وحده بلا سند ما دامت قضاياه عادلة. وهنا يبرز المؤشر الخامس: المواجهة/ النضال. ولا معركة بلا خسائر: «لا أنكر أني أضع نفسي تحت طائلة البندين 30 و31 من قانون الصحافة لسنة 29 تموز/ يوليو 1881 الذي يعاقب على جرائم الثلب»[6]. إنه المؤشر السادس: الاستعداد لتحمل نتائج النضال.

ما نخرج به من هذه الرسالة يمكن صوغه في عناوين تصلح كي تكون علامات يتحدد في ضوئها مجال المثقف الهُوَوي. أما الكلمة فـ «أمانة»، وأما المسؤولية فـ «وعي»، وأما الغاية فـ «رؤية»، وأما النضال فـ «شرف»، وأما تحمل النتائج فـ «تضحية». ولا يكتمل رسم حدود المجال إلا بشرط واحد هو أن يكون صاحب هذه الخصال صادرًا في أفعاله عن «إرادة ذاتية» لا عن ضرورة مهنية.

إن توافر هذه «الاستعدادات» و«الكفايات» يساعد في بناء الفضاء الذي تتحقق فيه هُوية المثقف، وهو «الحقل» (Champ). وغني عن البيان أن بورديو هو من استحدث هذا المفهوم الإجرائي لدراسة البنى الاجتماعية وتعميق النظر في خصائصها وآليات عملها. وإذ نستعير هذا المفهوم، فلأنه يمتلك قدرة كبيرة على إظهار أن المجتمع ليس نسيجًا موحدًا وموحدًا تلتقي فيه وتنصهر أطيافه

(6) صدر ضده بسبب هذه القضية حُكم بالسجن عامًا، فاضطر إلى اللجوء إلى لندن.

ويتكامل الفاعلون فيه في الأدوار التي يؤدونها، وإن شقهم صراع طبقي أبدي كما ترى الماركسية، إنما هو كيانات وتكتلات ومجالات مستقل بعضها عن بعض، ولكل واحد منها آليات تسيير ذاتي وتصورات ومقاصد خاصة به، ومن داخلها يتكوّن بالتدريج حسّ مشترك وقواعد عمل متفق عليها. وليست هذه التكتلات والكيانات إلا حقولًا، كالحقل السياسي والحقل الديني والحقل الاقتصادي. ولا يتكون ذاك الحسّ المشترك إلا بـ «ضريبة» يدفعها الملتحق بهذا الحقل أو ذاك، وهي نوعان: وجوب «الاعتراف بقوانين الحقل والحفاظ على مصالحه»، و«الإحاطة بكل ما يَصنَع تاريخ الحقل من المشكلات والصراعات والإمكانيات، فضلًا عن المعرفة العملية بمبادئ اللعبة وكيفية اشتغالها»[7].

2- المثقف الهُوَوي: بحث في الحقل والدور

ربما يكون غرامشي قصد انتشال المثقف من ضبابية التعريف العام حتى يمنحه فضلًا لا يعرفه غيره لما ميزه فقال: «إن جميع الناس مفكرون. ومن ثم نستطيع أن نقول: ولكن وظيفة المثقف أو المفكر في المجتمع لا يقوم بها كل الناس»[8]. لا نتوقع أن يكون غرامشي قام بهذا الفرز من دون أن يكون هو نفسه مادة تعريفية بامتياز. فما يميزه مفكرًا من غيره من مفكرين آخرين هو أنه قام بوظيفة المثقف، وأن «دفاتر سجنه» تشهد له بذلك؛ إذ حُكم عليه بالسجن عشرون عامًا، وأمضى في سجون موسوليني نصفها وفارق الحياة قربانًا. استخدم غرامشي عبارة «وظيفة المثقف»، وهو لا يعني قطعًا أن هذه الوظيفة قابلة «للمَهنَنَة» (Professionnalisation)، إنما المراد أن المثقف لا يكون مثقفًا ما إن يحصل نصيبًا من العلم. فلو كان الأمر كذلك، لكان معظم الناس مثقفين. إن تحويل المكتسبات من العلم والمعرفة إلى مواقف يحيا بها الإنسان سلوكًا وعلاقات وقيمًا ومبادئ هو ما يتحقّق به الفرز والتصنيف، فيكون المثقف في جهة من المشهد السياسي/ الاجتماعي، ويكون في الجهة الأخرى كل مَن لم يعش عمليات التحويل المذكورة. ويمكن على هذا

---

(7) علي حرب، **أصنام النظرية وأطياف الحرية: نقد بورديو وتشومسكي** (بيروت/ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2010)، ص 32-33.

(8) Antonio Gramsci, *Selections from the Prison Notebooks*, Quintin Howare & Geoffrey Nowell-Smith (trans.) (New York: International Publishers, 1971), p. 9.

الأساس تعيين المثقف تعيينَ تصنيف ليكون فئة أو طائفة أو جماعة تختص بالجمع بين المعرفة والعمل[9]. للعمل هنا معنى سوسيولوجي وأخلاقي واسع. وهذه «الوظيفة» التي «لا يقوم بها كل الناس» تدفع إلى استخلاص نتيجة هي أن تلك الفئة لا يمكنها أن تكون إلا محدودة إما عددًا وإما أثرًا.

هذا تقريبًا ما أثاره جوليان بندا، وهو ينظر في الخصال التي يتصف بها هؤلاء. وهذا التعريف الفَرزي الذي يجعل الفعل في الأرض ممارسة خصوصية يقصُر دونها من قَصُرَت بهم همتهم عن الانتصار للحق هو تمامًا ما بلوره سارتر تحت عنوان الالتزام حين جعل الدور الاجتماعي (Rôle social) في علاقة مباشرة بالوضعية (Situation) التي هو فيها، حيث أورد في العدد الأول من مجلة **الأزمنة الحديثة** (*Les Temps modernes*) التي أسسها في خريف 1945 بالاشتراك مع ميرلوبونتي هذا التمييز صريحًا: «يحيا الكاتب وضعية ما في عصره: رَجع لكل كلام وصمت. إني أحمل فلوبير وغُونكور المسؤولية عن الاضطهاد الذي أصاب الكُومونة[10] لأنهما لم يَخُطا سطرًا واحدًا للحؤول دون وقوعه. ربما يقول قائل: هذا ليس من شأنهما. لكن: هل كانت قضية [العائلة] كَلاس شأنًا خاصًا بفولتير[11]؟ وهل كانت إدانة دريفوس قضية زولا الشخصية؟ هل كانت [سوء] الإدارة [الفرنسية] في الكونغو قضية جيد الشخصية[12]؟ إن كل كاتب من هؤلاء، وهو في وضعية ملائمة للتصرف، حدد مسؤوليته»[13].

---

(9) عبّر هنري بربروس عن هذه المسألة تعبيرًا مباشرًا ودقيقًا: «تحمل الفكرة الصحيحة عواقب واقعية، وإلا فهي ليست – اجتماعيًا – سوى كذبة»، انظر:

Henri Barbusse, *Le Couteau entre les dents: Aux intellectuels* (Paris: Editions Clarté, 1921), p. 13.

(10) في شأن «كومونة باريس» (La Commune de Paris)، انظر على سبيل المثال:

Jacques Rougerie, *La Commune de 1871*, Que sais-je?, 3rd ed. (Paris: Presses Universitaires de France, 1997).

(11) نشير إلى أن **رسالة في التسامح** (Traité sur la tolérance) كانت الثمرة الفكرية المباشرة لتدخل فولتير في مأساة العائلة كلاس. للتوسع، انظر:

Benoît Garnot, *Voltaire et l'affaire Calas: Les Faits, les interprétations, les enjeux* (Paris: Hatier, 2013).

(12) يشير سارتر إلى رحلة أندريه جيد إلى الكونغو واطلاعه على سوء الإدارة الفرنسية لمستعمراتها، وآثار ذلك في حياة الناس. وللتفصيل، يمكن العودة إلى وقائع هذه الرحلة ومواقف جيد النقدية في كتابه/ سيرته: Gide André, *Voyage au Congo: Suivi de Le Retour du Tchad: Carnets de route* (Paris: Gallimard, 1981).

(13) Patrick Wagner, «La Notion d'intellectuel engagé chez Sartre,» *Le Portique*, no. 1 (2003), p. 3, dans: http://bit.ly/1Rrm4js.

هكذا إذًا، كان التصنيف قائمًا على الوظيفة، لا على المشترك (المعرفة). وتنقلنا الوظيفة بدلالتها الاجتماعية إلى مفهوم «الدور الاجتماعي»، وهو مفهوم أُثير في العلوم الاجتماعية منذ أواخر القرن التاسع عشر، قبل أن يفقد جزءًا من سلطته في التحليل والتفسير.

إن الدور الاجتماعي محدد رئيس في عمليات الفرز والتصنيف التي اعتمدها سارتر (وغيره أيضًا ممن خصوا المثقف بوجود هُوَوي). بهذا تفقد المكانة الاجتماعية المتأتية من الوظيفة/ المهنة قيمتها في تعريف المثقف. ولا يكون الدور الاجتماعي فاعلًا وقادرًا على تمييز المثقف من غيره ما لم يكن منبثقًا من قاعدتين متلازمتين تَلازمَ العلة والمعلول: الإيمان بالقيم الإنسانية الكبرى، والانخراط عمليًا في تكريسها. ومن شأن هاتين القاعدتين أن تُكسبا الدور الاجتماعي فاعلية تكاد تكون رسالية يتجاوز بها المثقف وضعية القيادة بمعناها المباشر إلى وضعية الرائي والمخلص: «المثقفون... هم أولئك الذين يسكبون الأفكار في صخب الحياة، علماء أكانوا أم فلاسفة أم نقادًا أم شعراء، فإن مهنتهم (Métier) الأبدية هي ضبط الحقيقة التي لا تقبل التعدد وتنظيمها، إن في قواعد أو في قوانين أو في كتب. إنهم الذين يرسمون المسارات والاتجاهات. إنهم يحوزون موهبة شبه إلهية تسمح لهم بأن يسموا الأشياء بأسمائها»[14].

3 – أزمة المثقف الهُووي: قراءة في السياق الدريفوسي

لئن كانت صرخة زولا «إني أتهم» شهادة ميلاد المثقف، فإن «نهاية المثقف»[15] كانت بمنزلة «تقرير حالة» استُخرجت بمقتضاه «شهادة وفاة». وإذا كان إعلان الولادة لا يثير قضايا وإشكالات، نظرًا إلى أن الحاجة إلى المثقف

---

(14) Barbusse, p. 5.

(15) من أكثر العناوين إثارة العنوان الذي تخيره جون فرانسوا ليوتار **قبر لكل مثقف** (*Tombeau de l'intellectuel*) ولم يكن كتاب ريجيس دوبريه **المثقف الفرنسي: التتمة والنهاية** (*L'intellectuel français: Suite et fin*) دونه مأساوية: قال عنه حسونة المصباحي: «لكأننا ونحن نقرأه نسير في جنازة حزينة لمثقفين فقدوا الدور والمصداقية والجدوى وباتوا صالحين لشيء واحد: الدفن!»، انظر: حسونة المصباحي، «المثقفون.. هل أصبحوا موضة قديمة؟»، **الشرق الأوسط**، 5/ 2/ 2001.

هي التي اقتضت وجوده، فإن ما يدعو إلى الريبة والقلق هو إعلان الوفاة. فبأي معنى يُفهم الأمر؟ هل استفرغ المثقف الهُوَوي كل الجهد لإبقاء مشروعية وجوده قائمة؟ هذا سؤال من أسئلة أخرى مدارها على المثقف الذي يصنع وجوده باتهام غيره وتُصنَع نهايته باتهامه.

كثيرة هي الأدبيات التي تتحدث عن انتهاء المثقف[16]، ولا شك في أنها لم تأت من فراغ. لكن كثرتها لا تعني بالضرورة صدقيتها بإطلاق. فربما يوجد باستمرار مَن يَهَب نفسه للدفاع عن العدل والحق، وإن جُرد في هذه الهوية التي شكلها السياق السابق الذكر. وقد يكون التطوع لأداء هذا الدور واقعًا في معنى الوجوب أو الالتزام السارتري، لكن خطورة أطروحة النهاية لا تستمد أهميتها من ضياع الحق بموت المثقف، إنما من انهيار التوازن بين التشكيلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية الذي نشأ بميلاد المكون الثقافي. فترويج «خبر» موت المثقف كأنما هو اعتداء رمزي على مكسب إنساني وفره قانون الترقي البشري في اتجاه التحرر من نزعات الإنسان الشريرة، لا بالمعنى الأخلاقي فحسب، وإنما بما للشر من حمولة مناقضة للثقافة أصلًا وابتداءً. وحين يُسَلط تفسير تاريخي تطوري قهري لنهاية المثقف مفاده أن المثقف مُنتَج تاريخي زائل بحكم قانون التطور نفسه، تفقد حركة التاريخ مقاصدها الكبرى، ويتجرد الإنسان تحت قَدَريتها الصارمة من قدرته على الفعل والتوجيه، ويصبح هو نفسه صنيعة التاريخ لا صانعه. وبهذا التصور تختفي عقلانية التاريخ ويغرق في اللامعنى.

ربما تَجاوَز توصيف الواقع واستخراجُ النتائج إلى إطلاق الأحكام، فجاءت الإدانة عنوانًا بارزًا لزمن مابعد المثقف الدريفوسي؛ إذ كتب جوليان بندا **خيانة المثقفين** في وقت مبكر[17]، وشدد فيه على انحراف المثقفين عن رسالتهم

---

(16) لعل كلمة «التزعزع» التي استخدمها علي حرب أقرب إلى المراد بوصفها تقوم على نقل المشهد: «أيًا يكن، فالدور التنويري والتحريري للمثقف الطليعي والنخبوي قد تزعزع منذ زمن». انظر كتابه: علي حرب، **الاستلاب والارتداد: الإسلام بين روجيه غارودي ونصر حامد أبو زيد** (بيروت/ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1997)، ص 76. وقد استخدم أيضًا كلمة «التصدع»، وهي ملائمة كذلك في هذا السياق: «إن نموذج المثقف، المناضل والطليعي... قد تصدع بعد أن آل إلى الفشل والإحباط» (ص 82).

(17) Julien Benda, *La Trahison des clercs* (Paris: Bernard Grasset, 2003).

الأصلية وانخراطهم في دعم الأنظمة الحاكمة والمؤسسات الرسمية. لم يُسَم بندا المثقفين باسمهم الهُوَوي، بل أطلق عليهم اسم (Clercs)؛ لما في التسمية من عَبق روحي ووجداني فوق دلالتها المعجمية المباشرة. والقصد هو أن تكون الإدانة أشد وقعًا. إنها خيانة الروح. وكتب بعد ذلك إدوارد سعيد تحت العنوان نفسه، «خيانة المثقفين»، مقالة دان فيها أداء المثقفين الأميركيين الذين صمتوا عن جرائم الحرب التي ارتكبتها دولتهم، أو اتبعوا سياسة التبرير: «إن كانت الحياة الإنسانية مقدسة... يجب دائمًا على المرء أن يبدأ مقاومته من وطنه ضد السلطة كمواطن يمكنه التأثير، لكن يا للأسف... ليس هناك سوى خيانة المثقفين والإفلاس الأخلاقي الكامل»[18].

ثانيًا: في علل التراجع
مقاربة تاريخية وظيفية

1 – من التوصيف إلى القراءة

بناءً على ما تقدم، يسلم البحث أن التراجع أضحى بمنزلة الحقيقة التاريخية والسوسيولوجية. وسنصطفي نصوصًا ثلاثة نتخذها متكأً، نحاول من خلالها تبين واقع «التراجع» وأبرز المقاربات في شأنها:

– **النص الأول**: «منذ السنوات العشرين الماضية التي ظهر فيها الكتاب الذي أعيد نشره حاليًا، بدَا لي اليوم أن الأطروحة التي كنت أتبناها، وهي أن الرجال الذين اتخذوا من الدفاع عن القيم الخالدة والنبيلة، مثل العدالة والحق، وظيفة لهم والذين سميتُهم مثقفين قد خانوا هذه الوظيفة لحساب منافع مادية... لم تفقد صدقيتها»[19].

---

(18) إدوارد سعيد، **خيانة المثقفين: النصوص الأخيرة**، ترجمة أسعد الحسين (دمشق: دار نينوى للتحقيق والنشر، 2011)، ص 89.

(19) هكذا افتتح جوليان بندا في عام 1946، وبعد مرور عشرين عامًا على صدور الطبعة الأولى من كتابه. انظر: مقدمة الطبعة الثانية في: Benda.

– **النص الثاني**: «على الرغم من فداحة النتائج النفسية للانهيارات الكبرى التي أطاحت طوباوية المثقف الملتزم، وطوحت به في العراء أمام الحقائق الفاجعة التي استفاق عليها وعيه فجأة، فإن الأوان لم يفُت بعدُ لبعث الحياة في رسالة الالتزام التي حملها يومًا، وليس القصد هنا القول بإمكانية استئناف أوهامه الرسولية السابقة، بل إعادة تأسيس معنًى جديد للالتزام»[20].

– **النص الثالث**: «إن من بين المشكلات الموجودة هناك [في باريس] هو أن التعامل مع المثقفين يجري باهتمام كبير جدًا... أصبح المثقفون نجومًا كأولئك الذين تصنعهم هوليوود... يأسف الناس لأن التعامل مع المثقفين في الولايات المتحدة لا يجري بما يلزم من الاهتمام. لكني أعتقد أن هذا من الأمور الجيدة في الولايات المتحدة»[21].

حين يكتب بندا عن استمرار تدهور مكانة المثقف وينعى المآل الذي وصل إليه، فإن المقاربة التاريخية الوظيفية هي التي كانت الخلفية النظرية للنتيجة التي ساقها. وحين يكتب بلقزيز عن أدوار المثقف التي ما زالت محتملة وممكنة، فإن المقاربة النقدية الاستشرافية هي التي دفعته إلى ذلك. وحين يكتب تشومسكي عن عدم حاجة الولايات المتحدة الأميركية إلى «مثقفين» بالمعنى المتداول في فرنسا، على نحو خاص، فلأن ما دعاه إلى ذلك هو أن تاريخ الولايات المتحدة الأميركية لم يعرف في مقاطعه الحيوية حضورًا فاعلًا للمثقف.

يُستفاد من هذا أن منزلة المثقف والأدوار الموكولة إليه ليست محل إجماع كما يُتَصَور عادة. ويبدو أن سبب هذا «الإجماع» المفترَض هو طغيان «مدرسة علم الاجتماع الفرنسية»، بدرجة أساسية، بمفاهيمها التأسيسية النظرية والإجرائية على مساحات واسعة من الدراسات الاجتماعية في كثير من بقاع العالم. ويمكن تحسس هذا التأثير أو الرغبة في حصوله في أمثلة قد يكون أبرزها الدرس الاجتماعي في المؤسسات الأكاديمية العالمية.

---

(20) عبد الإله بلقزيز، **نهاية الداعية: الممكن والممتنع في أدوار المثقفين**، ط 2 (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2010)، ص 149.

(21) «Entretien avec Noam Chomsky,» Propos recueillis, traduits et présentés par Normand Baillargeon, Le Cerveau a tous les niveaux (Website), 21/1/1993, dans: http://bit.ly/1k5687S.

من الأمثلة المباشرة ذات النزوع الصريح إلى جعل المثقف الفرنسي أنموذجًا يمكن تصنيعه، لا ترويجه، خارج مجاله فحسب، هذا التشبيه الذي طرحه نورماند بيرجون على تشومسكي في الحوار المذكور سابقًا: «قرأتُ في مقالة من موسوعة فرنسية مخصصة لكم أنكم تمثلون على نحو من الأنحاء سارتر الولايات المتحدة الأميركية». ويبدو أن تشومسكي لم يستحسن أن يكون نسخة أميركية من أصل فرنسي على الرغم من مكانة سارتر والأدوار النضالية «الملتزمة» التي ما فتئ تشومسكي ينهض بها. فاكتفى في رده على مُحاوره بالضحك، بل والاستغراق فيه كما تدل صيغة الجمع (Rires de Chomsky). ولما ألح عليه مدققًا في الشبه الذي بينهما: «أريد أن أقول: إنك، مثلما كان سارتر، فأنت مثقف ملتزم»، أجابه برد يمكن أن نفهم منه محاولة تشومسكي أن يطيح أسطورة المثقف الفرنسي التي يتباهى بها الفرنسيون: «كان [سارتر] ملتزمًا، ولكن ثمة شيء حقيقي في التقليد الفرنسي نفسه. إن أغلب المثقفين، وفي كل مكان، هم في خدمة السلطة... وأما الذين ليسوا في خدمتها فمُهَمشون... إن السبب الذي يجعلكم لا ترون المثقفين هنا 'ملتزمين' هو أن لا أحدَ يعطيهم من الاهتمام فوق ما يستحقون»[22].

الحاصل من هذا أمران: **الأول** هو أن سارتر، مقارنة بالعدد الكبير من مثقفي السلطة، لا يمثل فعلًا «مجتمع» المثقفين؛ إنه كالاستثناء. و**الثاني** هو أن وضع المثقف في منزلة فوق منزلته الحقيقية هو ما جعل منه «نجمًا» بالمعنى «الهوليوودي» المشار إليه. وبناءً على هذا، يتقلص حجم المثقف المبالَغ فيه. ولا شك في أن تشومسكي وهو يجتاح مجال المثقف الفرنسي «المُعَولَم» (Intellectuel globalisé) ويعمل على تبديد الكثافة الرمزية الإيجابية المحيطة به، يترك لفاعلين آخرين (من خارج حقل المثقف) ممارسة الأدوار التي يُعتَقد أن المثقف مندوب وحدَه للقيام بها. ولا ريب في أن التجربة الأميركية التي لم تسوق مثقفين كبارًا في قيمة مثقفي فرنسا يمكن تأمل مساراتها من زوايا عدة. لكن أبرز ما تختص به هو أنها تجربة خبراء، لا تجربة مثقفين.

لا خلاف في شأن نُبل المقصد الذي رأى فيه بندا أن المثقفين ضيعوه.

(22) Ibid.

فالانتصار للقيم الإنسانية التي ترتقي بوضعية الإنسان في الوجود لا يمكن إلا أن يكون مدخلًا حقيقيًا إلى صوغ حياة إنسانية متخففة من أثقال الانحراف والظلم والاستعباد. ومر في المبحث الأول من البحث أن هذا الموقف يمثل الوظيفة المركزية للمثقف وعنوانًا من العناوين التي تُشكل هويته. لكن، هل أن قدَر المثقف هو أن يكون «دريفوسيًا»[23]؟ هل ما زال قادرًا اليوم على «الالتزام» بتحمل الأعباء التي ندب نفسه لتحمل مشاقها في نهاية القرن التاسع عشر؟ ألا يكون تعقد الحياة بأبعادها المختلفة سبيلًا إلى تحمل فاعلين من مشارب أخرى مسؤولية المشكلات الناجمة عن هذا التعقيد؟ وما قيمة «الإدانة» و«التخوين» و«القتل» إن تبين بقراءة موضوعية غير ثأرية أن الحضور الهُوَوي للمثقف ما عاد قادرًا بمفرده على التصدي لـ «مظالم» الحياة الراهنة التي «تَعولَم» فيها كل شيء حتى أنه ما عاد في الإمكان السيطرة عليها الآن وهنا؟ ألا يكون جزء من المسألة عائدًا إلى ضيق مفاهيم «مدرسة علم الاجتماع الفرنسية» وعجزها عن مواكبة التحولات الاجتماعية والسياسية والقانونية والاقتصادية التي عرفها العالم منذ ثمانينيات القرن العشرين؟

2 – المثقف الهُووي ومعقول التاريخ من تمام الصورة إلى شظايا الواقع

تؤدي هذه الأسئلة إلى النتائج التي أفضت إليها المقاربة النقدية الاستشرافية. فالتمسك بصورة نمطية للمثقف قُدت في سياق تاريخي وثقافي معين ليس له إلا أن يمارس سلطة وهمية أو طوباوية على أولئك الذين ما زال يستهويهم الحنين إلى زمن الحقل الثقافي، المقارع الوحيد للظلم، وإلى التمتع بمرأى المثقف متوثبًا متصديًا وهو يصرخ: «إني أتهم». فعبد الإله بلقزيز وهو يعيد رسم خريطة المثقف والمساحات التي لا يمكنه أن يتخطاها إنما يصدر عن وعي بالمتحولات الكبرى التي أدخلت المجتمعات الإنسانية في أنساق من العيش والسلوك غير تقليدية، وأعادت تنظيم مراتب الجماعات والهيئات والحقول والأدوار على نحو جديد.

(23) يُستخدم هذا الاستعمال للدلالة على تيار المثقفين الذي سار على نهج زولا. والواقع أن المبادئ التأسيسية التي قام عليها مبحث المثقف مشتقة كلها من مقولات هذا التيار، كما سبق بيان ذلك.

ومن شأن الوعي بهذه المتغيرات أنها لا تطيح الصورة النمطية للمثقف فحسب، بل تستحث هذا المثقف أيضًا على إعادة تموقعه بحسب ما يقتضيه مقامه. وتتحقق هذه العملية بقَطع الخطوة الأولى، وهي «أن يكف عن تضخيم دوره 'التاريخي' وأن يُقلع عن عادة انتداب النفس لأداء مهمات أعظم من حقل الثقافة ذاته»[24].

ربما تلوح في هذه المقاربة النقدية الاستشرافية قسوة مبالَغ فيها لأنها ربما لا تكتفي بخلع المثقف من وهم الصورة ونمطيتها، فلعلها تخلعه أيضًا من منزلته التاريخية، وتجرده من أدواره، وتقصيه عن حقله، وتحرمه سلطته التي بسببها كان مثقفًا. إن «الاعتداء» على المثقف «الدريفوسي»، بعد أن أصبح تقريبًا مادة تاريخية، لا يساعد، موضوعيًا، في دراسة مسارات تَشكل المثقف في التاريخ المعاصر. لذلك ينبغي أخذ الحيطة حين يراد تأسيس وضعية جديدة لمثقف جديد. فالنقد/ الهجوم الذي يوجه اليوم إلى ذاك المثقف، إن لم يُوضَع في إطار نقد المفاهيم المصاحبة له من جهة، ونقد الأسس التي قامت عليها العلوم الاجتماعية المهتمة بهذه المسألة من جهة ثانية، لن يفضي إلى نتائج ذات قيمة. فالقول إن مكانة المثقف تزعزعت قول لا إشكال فيه لأنه توصيف للمشهد من خلال رصد آثار المثقف في الواقع. لكن القول «لقد انكشف الوهم الكبير الذي ألهم المثقفين تلك المشاريع الشاملة والأيديولوجيات الثورية لتغيير العالَم وتحرير الشعوب من القهر والاستلاب. هذا من لدن ماركس حتى غارودي، مرورًا بكل المنظرين الثوريين والمثقفين العالميين»[25]، حُكم فيه شطط كبير إن لم نقل إن فيه ظلمًا، لأنه لم يرجع تزعزع المكانة إلى مقدماتها التاريخية وإنما حصرها مباشرة في أن المثقف مُذ كان مثقفًا (بالأدوار والحقل والسلطة)، كان يبني مجده على الإيقاع بالناس في شَرَك سلطته الوهمية تزييفًا لحقيقته هو ولوعي المؤمنين برسالته. لكن، هل كان الأمر كذلك حقًا؟

يصعب أن نساير علي حرب في هذا التخريج تحديدًا. فإنتاج المعنى كان باستمرار وظيفة حيوية للإنسان وحضارته، تمييزًا له من سائر الكائنات. وما «المعنى» إلا ما به يتأنسن الإنسان. وكم كان مطاع صفدي دقيقًا لما عرف الإنسان

(24) بلقزيز، ص 149.

(25) حرب، **الاستلاب والارتداد**، ص 78.

أنه «كائن المعنى»[26]. لكن، ينبغي الانتباه إلى أن إنتاج المعنى ليس متاحًا للناس جميعًا. إن جماعة واحدة من الجماعات المشكلة للمجتمع الإنساني هي القادرة دون غيرها على ذلك، وهي جماعة «المثقفين». وبقطع النظر عن أي صنف من هؤلاء يقوم بهذا الدور، وفي أي جدول من جداول علوم الاجتماع نجده، فإننا نرى – على وجه التعميم – أنه ذاك الذي يمارس نشاطه في مجال الرموز والفنون والأفكار والآداب والفلسفة إما إنتاجًا وإما ترويجًا، سواء صادف أن سُمي مثقفًا أو لم يصادف أن يُسمى كذلك.

استخلاصًا مما تقدم وبناءً عليه، تُنتج السياقات حين تتقاطع معقولية ما تفرزه من معانٍ وقيم وتصورات وأدوار ومواقع. لذلك، تكون نشأة المثقف الهُووي بأدواره التحريرية والرسالية والثورية... نشأة موضوعية لأنها مشتقة من تقاطع السياقات. وحين يقع الإقرار بتزعزع مكانة المثقف، يكون السؤال المنتج والأقرب إلى الطرح من غيره هو: هل انتبه المثقف الهُووي/ الدريفوسي إلى أن شروط إنتاج مبررات وجوده والأدوار التي نَدب نفسه للنهوض بها ما عادت اليوم كما كانت من قبل؟ فمثل هذا السؤال ينقلنا من دائرة الحُكم الأخلاقي – «الجنائي» إلى دائرة البحث في التحولات واشتراطاتها الجديدة. هذا ما ذهب إليه علي حرب نفسه في ما بعد. ولَيتَه لم يجمع بين الحكم والتحليل جمع تناقض: «العالَم قد تغير على نحو مذهل»[27].

3 – خيانة أم عجز موضوعي؟

كانت التحولات، إذًا، على درجة من الضخامة والعمق. وبدا المثقف الهُووي عاجزًا عن مجاراتها أو الوقوف في وجهها؛ إذ عصفت به مع مَن عصفت من

(26) ممّا جاء في تعريف مطاع صفدي للمعنى: «والمعنى، ما هو معناه؟ إنه استشعار... هذا الاستشعار ميز الجسد من حيث هو استراتيجية تجاوز مستمر. إنه ليس المخلوق الذي كان يدب على أربع عندما كان مجرد حيوان، ثم أضحى ثنائي القدمين، ليس هو كذلك فحسب، بل غدا أهم تمركز قووي يتعامل مع العالم من منطق الاختراق والتجاوز الدائم. وبالطبع ليس تحركه المادي هو المقصود هنا، بقدر ما هو في اقتداره على اكتشاف مسافات المعنى واختراعها في آنٍ. إنه كائن المعنى الذي لا يكف عن إعطاء مفهوم لوجوده، أو معنًى لحياته»، انظر: مطاع صفدي، **ماذا يعني أن نفكر اليوم: فلسفة الحداثة السياسية: نقد الاستراتيجية الحضارية** (بيروت/ باريس: مركز الإنماء القومي، 2002)، ص 278.

(27) المرجع نفسه.

مكونات زمن ما قبل انهيار الاتحاد السوفياتي. كان ضحية من ضحايا الرأسمالية/ الليبرالية المنتصرة. وكان سقوطه جزءًا من سقوط يسار العالم[28]. لهذا، يصعب الاطمئنان إلى القول: «إن المثقف خان الأمانة». قد يَصدق هذا على مثقفين أفرادٍ يتعينون بأسمائهم وأفعالهم، أو قد تنطبق التهمة على نوع من المثقفين وُجدوا لأداء أدوار «صغيرة» في زوايا صغيرة[29]. وهُم إن قُورنوا بما كان يُفترض أن يكون عليه المثقف (النمطي، والأنموذج، والثوري، والملتزم، والعضوي) شُبه للمقارن أن خيانة وقعت منهم.

لم يخُن المثقف الهُووي الأمانة، إنما خانته (على المجاز) قوتان: قوة التحولات وقوة/ انهيار اليسار. وبهذا المنحى وحده نفهم معنى أن يكون المثقف اليوم في هامش التاريخ. أما هؤلاء الذين تُوجه إليهم أصابع الإدانة، فما هم قَطعًا من منتسبي «الحقل». إنهم نسخة ما بعد التحولات التي أعادت تركيب الأدوار. ويبدو أن النقد الذي استهدف المثقف الهُووي أُطلق كله في الفراغ لأنه استهدف وجودًا غير موجود[30]. وقد يكون النقد الذي وجهه إدوارد سعيد إلى مثقفين

(28) لا شك في أن حدث تفكك الاتحاد السوفياتي لم يكن بداية انهيار المثقف ومقولاته الخلاصية الكبرى. كان بالنسبة إلينا اختيارًا منهجيًا فحسب؛ نظرًا إلى رمزيته الجيوسياسية والأيديولوجية. أما تاريخيًا، فيعود الجدل في شأن فاعلية المثقف الهووي إلى الخمسينيات. وصار الحكم عليه بالإلغاء معلومًا في الستينيات. والكتابات التي روجت فكرة نهاية اليوتوبيا ونهاية الأيديولوجيا تؤكد ذلك. ويبقى عالم الاجتماع الأميركي دانييل بل الأكثر شهرة بكتابه **نهاية الأيديولوجيا** الذي طُبع أول مرة في عام 1960. ولعل الفرنسي ريموند آرون بكتابه **أفيون المثقفين** الذي ظهر في الفترة نفسها تقريبًا ينافسه في الترويج لانتهاء زمن الأيديولوجيات الكبرى. للتوسع، انظر على نحو خاص: راسل جاكوبي، **نهاية اليوتوبيا: السياسة والثقافة في زمن اللامبالاة**، ترجمة فاروق عبد القادر، عالم المعرفة 269 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2001)، تحديدًا الفصل الأول: «نهاية النهاية لـ 'نهاية الأيديولوجيا'. ويحسن التنبيه ههنا إلى أن بل وآرون (وكلّ من شاركهما هذا الموقف في خمسينيات القرن العشرين وستينياته) كانوا ينطلقون من الانتصار للرأسمالية والليبرالية، وكانوا يعتقدون أن مصير العالَم هو «دولة الرفاه».

(29) يقول جاكوبي: «أما اليوم، فإن المثقفين لم يعودوا قادرين على التدخل في الشؤون العامة باسم العالمية، والإمكانات المتاحة هي 'محلية' و'دفاعية فحسب'». ويقول عالم الاجتماع محمد صبور: «إن نوع المثقفين العالميين قد أصبح نادرًا، أو هو، في حقيقة الأمر، قد انقرض». انظر: جاكوبي، ص 139.

(30) بحسب آلان تورين، حتى صورة المثقف (الهُووي) ما عاد لها أثر: «إن صورة المثقف هذه لا تنتمي إلى وقتنا الحاضر»، انظر: Alain Touraine, *Critique de la modernité* (Paris: Les Éditions Fayard, 1992), p. 415, dans: http://bit.ly/1NVzH8a.

«خانوا أماناتهم» بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر 2001 مثالًا جيدًا لاتهام يصاغ خارج الزمان والسياق، حيث قال لمناسبة مرور عشرين عامًا على ظهور كتابه **الاستشراق**: «المؤكد أن من بين الكوارث الفكرية في التاريخ ما نراه الآن من حرب إمبريالية مدمرة افتعلتها مجموعة صغيرة من المسؤولين الأميركيين... ضد بلد من العالم الثالث يعاني أصلًا الدكتاتورية والدمار، وذلك على أساس أيديولوجي يتلخص بالسيطرة على العالم وموارده. ونجح هؤلاء في تمويه غايتهم هذه بفضل التبرير والدعم اللذين لاقوهما من مستشرقين خانوا أماناتهم العلمية»[31].

المعني بالاتهام على وجه الخصوص شخصيتان معروفتان: برنارد لويس وفؤاد عجمي. وتوقع إدوارد سعيد أن يقفا في وجه العدوان الأميركي على العراق. والحقيقة أن ما كان لهما أن يفعلا إلا ما فعلا. فهُما لا ينتميان إلى زمن المثقف الذي يتحرك إدوارد سعيد في داخله، بل إلى الزمن الأميركي، زمن «مراكز الخبرة والتفكير»[32] (Think Tanks). وانخراطهما في مؤسساته بدد كل إمكان للنظر إليهما كما لو كانا مثقفين هُوَويين. لذلك تسقط التهمة لعدم انطباقها على صورة الحال. وإذا كان الاتهام بالخيانة في غير موضعه في ضوء مقاربة تاريخية نقدية، فإن الحُكم على المثقف بالانتهاء أو الموت، على الرغم من قسوته الظاهرة، هو الحُكم الأقرب إلى اليقين لأنه حكم «تقرير حالة»، لا حكم «إدانة». انتهى المثقف الهُووي لأن زمنه فَقَدَ مفاعليه وضرورات استمراره، لكن المثقف غير الهُووي لن يَعدم مساحات ينشط فيها.

حين تنتفي موضوعيًا مبررات وجود المثقف الهُووي، تأتي الدعوة إلى تجسير العلاقات بين مختلف الفاعلين تعويضًا من الفراغ من جهة، ووعيًا تاريخيًا بأن مشكلات الإنسان المُعولَم ما عاد قادرًا على التصدي لها إلا بجهد مركب مشترك. وإذا كنا لا ندري على وجه اليقين مقدار الأثر العَيني الذي يستطيع هذا الجهد

---

(31) Edward W. Said, «L'Humanisme, dernier rempart contre la barbarie,» *Le Monde diplomatique* (Septembre 2003).

(32) تتعدّد المصطلحات المركبة التي يجري توظيفها في مقابل المفهوم الأنغلوسكسوني (Think Tanks). وسنعبّر عنها في هذا البحث بالمصطلح المركب «مراكز الخبرة والتفكير».

المشترك أن يساهم به في تحقيق مطالب الناس، فإن ما ينبغي تسجيله في هذا الصدد هو أن مجالًا جديدًا أخذ في التشكل بعيدًا عن المعالجات التعديلية والمَوضعية للمثقف منزلة ووظيفة. إنه مجال الخبير الذي يبدو أنه البديل النوعي للمثقف الهُوَوي[33]. ولعله، بالأدوار الموكولة إليه، سيبدد كل إمكان لترميم حقل المثقف.

ثالثًا: «مراكز الخبرة والتفكير» وزمن مابعد المثقف الهُوَوي - مقاربة سياقية

1- في خصوصية النشأة ودلالاتها: بحث في جدل الفكرة والقوة

لما أجاب تشومسكي مُحاوره إن كان بمنزلة «سارتر الولايات المتحدة» بالاستغراق في الضحك، لا نظن أنه انتشى بهذا التشبيه. مِلنا، من دون أن يكون أمامنا معطيات أخرى غير الضحك، إلى أنه ربما تبرمَ وتضايق. فدانييل بل الذي حكم على المثقف في الستينيات بالموت (وسارتر «ستيني» بامتياز)، يعسر من بعده، بعد أن صار الزمن زمنًا أميركيًا، أن يظهر فيه من يلبس جبة سارتر، على الرغم من التقدير الكبير الذي يحتفظ به تشومسكي لهذا المثقف الملتزم. لم يكن ما ذهبنا إليه لسبب يخص تشومسكي الفرد (قد يكون رأى نفسه أكبر من سارتر). فتشومسكي في هذا الموقف أميركي، يتحدر من سلالة مجتمع لم تكن فيه الثقافة الرامزة التي «يفتح» من خلالها المثقف الرسالي الأرض أمام الحرية والعدل والحق، تعني شيئًا كبيرًا[34]. فالولايات المتحدة الأميركية، من به تصنع استثناءها وقوتها وتضمن مصالحها؛ إنه الخبير.

---

(33) وُجدت مقترحات من مفكرين عرب قد يكون مقترح الجابري منذ الثمانينيات («الكتلة التاريخية») ذو الجذور الغرامشية أكثرها وعيًا بأن المثقف ما عاد قادرًا على تحقيق الأهداف الكبرى، مثل الديمقراطية والحرية، فضلًا عن الأحزاب التقدمية أو الطلائعية أو حتى الجبهات. «الكتلة التاريخية» إطار يلتقي فيه الجهد المؤمن بالمستقبل العربي. لكن هذا الاقتراح لم يذهب به صاحبه بعيدًا، ولم يتحمس له كثير من الناس.

(34) هذا رأي شائع وظهرت كتابات كثيرة تعززه؛ من ذلك كتاب ريتشارد هوفستارد حول **معاداة الثقافة في الحياة الأميركية** (1963). انظر:

Richard Hofstadter, *Anti-Intellectualism in American Life* (New York: Knopf, 1966).

قبل التدقيق في المصطلح، نشير إلى أن الأعوام الأخيرة عرفت فائضًا في استخدام عبارة «خبير» لتقديم شخصيات من مجالات معرفية متنوعة للرأي العام. وأكثر ما يظهر هذا التعريف بـ «الضيوف» في وسائل الإعلام. ويبدو أنه استخدام اعتباطي يبتز من المعجم جانبَه التخصصي من دون أي دلالة أخرى. ولا ندري إن كان ذلك لمناسبة طرح الحمولة التي كانت تملأ كلمة مثقف، نظرًا إلى الضربات القاصمة التي تلقاها، أو لأمر آخر. لكن الثابت هو أن كلمة «مثقف» تكاد تختفي حقًا من الفضاء العمومي، وتحديدًا من الفضاء الإعلامي، وأن سوق كلمة «خبير» في ازدهار. فما الخبير أولًا؟

تحيل هذه الكلمة عند المتخصصين، مباشرة، على مصطلح «مركز الخبرة والتفكير»، وهو من المصطلحات القليلة في العلوم الاجتماعية التي يكتنفها غموض شديد[35] وتستعصي على الترجمة[36]، إضافة إلى أنه لم يدخل مجال التداول العام والأكاديمي خارج الولايات المتحدة الأميركية[37] على النحو الذي يجعله بديلًا سهلًا من كلمة مثقف.

من دون كثير من التفصيل، نشير إلى أن الاتجاه الغالب على التعريف المعجمي هو ما تحيل عليه كلمة Tank من معاني الإناء المُعَد لحمل مادة ما، وما تحيل عليه كلمة Think من دلالة على الفكر. والحاصل منهما مجتمعتين هو الدلالة على فضاء للتفكير أو جماعة تمارس التفكير. لكن دلالة أخرى لم تنل حظها في أثناء البحث عن معنى Tank. فالكلمة لا تعني الإناء الذي تُعَبأ فيه مادة للحفظ أو النقل فحسب؛ ذلك أن من معانيها أيضًا «المجنزرة/ الدبابة» (Char).

---

(35) قال عنها كزافييه تانجي: «هذه العبارة الأنكلوسكسونية تحتفظ في فرنسا بغموض الدلالة»، انظر: Xavier Carpentier-Tanguy, «Think Tanks: Un Concept ‹Made in USA’,» *Journal du Net* (avril 2004), dans: http://bit.ly/1MjwPw4.

(36) قيل عنها إنها كلمة «مطاطة وغير قابلة للترجمة» (Plastique et Intraduisible)، والمقابلات التي اقتُرحت لم تكن، في معظم الأحيان، قادرة على استيعاب دلالاتها.

(37) ثمّة رأي شاذ مفاده أن أوّل ظهور لـ «مراكز الخبرة والتفكير» كان في بريطانيا، وحجّته أن كفاح بعض البريطانيين ضدّ الرقّ بزعامة توماس كلاركسن أدى إلى تأسيس أول مركز رأي في العالم في 22 أيار/ مايو 1878 تحت اسم: «Committee for the Abolition of the African Slave Trade».

وربما يكون انصراف المترجم عن العناية بهذا المعنى عائدًا إلى خلو ذهنه من احتمال وجود علاقة بين الفكر (Think/ Pensée) والدبابة[38] (Tank/ Char)، وهذا أمر يجري تفهمه تاريخًا وسياقًا، بل إنه يجد من المعطيات ما يمنع صرف التفكير إليه. ألم يوجَد المثقف أصلًا وجودَ تناقض مع «الدبابة»/ الجيش الفرنسي (قضية دريفوس)؟

حين ينزاح النظر عن المقابل المعجمي الأول (الإناء/ الفضاء/ النادي) إلى المقابل المعجمي الثاني المُهمَل (الدبابة)، يتحقق ركن أساسي من أركان التعريف: العلاقة المباشرة إلى حد الالتحام أو الانصهار بين عنصري المصطلح Think وTank: اتحاد الفكر والقوة. فالفكر بلا قوة تفرضه، لا قيمة عملية له، والقوة بلا عقل يقودها، لا فائدة تُجنى منها[39]. وربما يكون (لهذا السبب تحديدًا) قد عَسُرَ ضبط تعريف دقيق وأمين لـ «مركز الخبرة والتفكير».

أما عن النشأة، فشيء من مقادير الصدف يجمعها بنشأة المثقف. قضية دريفوس كانت في عام 1898، وهو العام نفسه الذي ظهرت فيها إلى العلن الأميركي عبارة الـ Think Tank. صحيح أنها لم تظهر بالدلالة الثانية وإنما بمعنى «الدماغ الحامل للفكر»[40] (Boîte à idée)، لذا سيحتاج الأمر إلى بعض الوقت لتتمخض الدلالة الثانية. ويبدو أن حرب الانفصال (1861–1865) والتحديات التي اعترضت وحدة الشمال والجنوب دفعت قطاعات من رجال الفكر والاقتصاد والسياسية والدين من ذوي المهارات العالية إلى الانخراط في معركة المصير. وكان قرار الخروج من «الموقف الانعزالي» (Attitude isolationniste) والمساهمة في رسم

(38) من الدراسات القليلة في هذا الباب، دراسة جان سامان: Jean-Loup Samaan, «Les Origines militaires des Think Tanks: Le Cas américain,» *Chantiers politiques*, no. 5 (Printemps 2007).

(39) لذلك ذهبنا إلى أن جريان كلمة «الخبير» على الألسن من دون رقابة لدلالتها وخلفيتها يدخل في باب الاستخدام الاعتباطي.

(40) نشرت **نيويورك تايمز** يوم 18 كانون الأول/ ديسمبر 1898 مقالة عن متشرّد ارتكب جريمة. وفي أثناء استنطاقه في مخفر للشرطة، قال في تعبير سوقي مبررًا فعلتَه: «سيدي، إن صندوق أفكاري معطل»، قاصدًا أن فساد فكره هو مَا قاده إلى الانحراف. نقلًا عن: Thomas Medvetz, «Les Think tanks aux États-Unis: L'Emergence d'un sous-espace de production des savoirs,» *Actes de la recherche en sciences sociales*, nos. 176-177 (2009), p. 81.

معالم السياسة الدولية، بدءًا بالانخراط في وقائع الحربين العالميتين الذي يحتاج إلى إسناد في التصور والتخطيط والاستشراف. وشرعت جماعات التفكير والرأي تتحول بالتدريج إلى مؤسسات كبرى تنهض بأدوار أساسية[41]. هكذا ارتبط ظهور «مراكز الخبرة والتفكير» بالأزمات أو المتغيرات الجيوسياسية[42].

2- في أدوار «مراكز الخبرة والتفكير»: بحث في تسليع القيم

أعطى الطابع المؤسسي «مراكز الخبرة والتفكير» شخصية معنوية واضحة من جهة، وحضورًا مؤثرًا في الواقع المادي من جهة ثانية. وإذا كان المثقف اكتسب شرعيته بأدوار الاحتجاج والاعتراض، وبنى سلطته بانتصاره للقيم الإنسانية، فإن «مراكز الخبرة والتفكير» استمدت شرعيتها من أدوار الإسناد والمعاضدة للسلطات. وما إن عصفت التحولات بالعالم وفقد يسار العالَم موقعه، حتى فقد معه المثقف تأثيره. وما إن اجتاحت مبادئ السوق العالم حتى برز «عقل المصلحة» قويًا في حلف لا ينفصم مع سلطتَي السياسة والمال. وإذا كان المثقف منتج أفكار، فإن «مركز الخبرة والتفكير» منتج وبائع. الفكرة عنده سلعة، والسلعة مال، وما هذا بمستغرب في سياق الثقافة المجتمعية الأميركية. ويرى هيرب بركوفيتز المتنمي إلى واحدة من أشهر مؤسسات الفكر الأميركية (The Heritage Foundation)، أن إنتاج الفكرة وطباعتها ليسا إلا نصف المهمة، وأن «ما يبقى هو بيع الأفكار»[43]. وسوق

---

(41) على سبيل المثال، انظر: Donald Abelson, «Think Tanks and U.S. Foreign Policy: An Historical View,» *U.S. Foreign Policy Agenda*, vol. 7, no. 3 (November 2002).

وأما ريتشارد هاس، فاستخدم كلمة «موجة» (Wave) لتقسيم ثلاثي. انظر: Richard N. Haass, «Think Tanks and U.S. Foreign Policy: A Policy-Maker's Perspective,» *U.S. Foreign Policy Agenda*, vol. 7, no. 3 (November 2002), pp. 5-6.

(42) في هذا الصدد، انظر على سبيل المثال: Stephen Boucher & Martine Royo, *Les Think tanks: Cerveaux de la guerre des idées*, Pascal Lamy (préf.), Échéances, 2nd ed. (Paris: Le Félin-Kiron, 2009), Chap. 3: «Les Think Tanks naissent sur les décombres des crises», and James Allen Smith, *The Idea Brokers: Think Tanks and the Rise of the New Policy Elite* (New York: Free Press, 1991).

(43) نقلًا عن أندرو رايش، انظر: Andrew Rich, «War of Ideas: Why Mainstream and Liberal Foundations and the Think Tanks They Support are Losing in the War of Ideas in American Politics,» *Stanford Social Innovation Review*, vol. 3, no. 1 (Spring 2005), p. 25.

يذكر رايش في هذا الصدد أن مؤسسة The Heritage Foundation أنفقت على الإعلام والاتصال في عام 2002 ثلث ميزانيتها التي تقدر بـ 33 مليون دولار.

الأفكار ناشطة في الولايات المتحدة نظرًا إلى أنها الممول الوحيد للمؤسسات العامة والخاصة[44]، وعبارة «حرب الأفكار» (War of ideas) كثيرة التداول هناك.

يمكن القول، إذًا، إن انسحاب المثقف لم يكن طوعيًا، وما كان بسبب خيانة. فهذا الزمن الناشئ بعد انهيار المعسكر الاشتراكي وشبكة القيم المرافقة له، اصطحب معه فاعلًا جديدًا يسنده ولا يصادمه. وهو ذو هوية مؤسسية تقوم على دعامتَي المال وإنتاج الأفكار لتحصيل منفعة مباشرة آنية أو بعيدة المدى. ولا شك في أن استبدال «القيمة» بـ «المصلحة» استبدالًا يعطي لهذا الزمن بعض خصائصه فرض على «قادة الرأي» أن يكونوا في خدمة هذه الفلسفة العملية[45]. ويكفي الاطلاع على نسيج المؤسسات البحثية في الولايات المتحدة حتى تُفهم دلالة تسليع الفكرة من ناحية، وطغيان ثقافة المنفعة من ناحية ثانية (وصل عددها في عام 2013 إلى 1828 مؤسسة). إننا طبعًا لا نستحضر في هذا المقام الخبراء بوصفهم أفرادًا أو «مثقفين تقنيين»[46]. فالخبير لا يكون خبيرًا إلا داخل مؤسسة يلتزم أهدافها في ما يُنتج من معرفة/ بضاعة ويأخذ في مقابل «أتعابه» مالًا[47]. ولا هوية له خارج المؤسسة. إنها هي التي تهبه صفته، بل هويته نفسها. وإذ يكون الخبير «مثقف» الزمن الأميركي المعولَم، فلا يُتوقع إذًا أن يُرَى ما يخالف المبادئ التي ينهض عليها هذا الزمن.

---

(44) من أمثلة هذا النوع من التنافس الذي تلتقي فيه الفكرة والمال، ما برّر به أندرو انتصارات المحافظين على الجمهوريين المتلاحقة: «هذا النجاح لا يعود إلى قوة الأفكار فحسب. إن خَلف هذه الأفكار مؤسسات ناجحة»، انظر: Rich, p. 25.

عن الدور الكبير الذي تقوم به هذه المؤسسات، يعلق جوستان فايس: «هنا تُبنى سياسات أميركا الخارجية والداخلية وتُصاغ، وإنها المحضنة التي يجري فيها اختيار المسؤولين عن مستقبل أميركا كل أربعة أعوام». انظر: Justin Vaïsse, «Les Courants de pensée en politique étrangère aux Etats-Unis: Hégémonistes contre gestionnaires,» *Alternatives internationales*, no. 1 (Mars-Avril 2002).

(45) على سبيل المثال، انظر: Michael D. Rich, «RAND: How Think Tanks Interact with the Military,» *U.S. Foreign Policy Agenda*, vol. 7, no. 3 (November 2002), pp. 22-25.

(46) عن «تسليع» الفكرة، انظر مثلًا: John C. Goodman, «What Is a Think Tank?,» National Center for Policy Analysis, at: http://bit.ly/1JeKLYz.

خصوصًا الفقرة الموسومة «Marketing Ideas»، والفقرة الموسومة «Intellectual Entrepreneur».

(47) Yves Derai, «Think Tanks: Les nouveaux laboratoires du pouvoir,» *L'Optimum*, no. 71 (2004), p. 103.

بناءً على هذا كله، يكون توسع نفوذ أميركا في العالَم وفرض رؤيتها وأسلوب عيشها وقيمها «المسلّعة» (Marchandisées) متناغمة مع غزو نسختها من «مركز الخبرة والتفكير» فضاءات وثقافات كانت ذات يوم تفتخر بأنها تحت سلطان المثقف: «اجتاحت مؤسسات مراكز الخبرة والتفكير باريس وباشرت الاهتمام بكل الموضوعات». ورمزية باريس الثقافية لا تخفى، وغزو «مراكز الخبرة والتفكير» لها شهادة لا تُرَد بأن الزمان ما عاد زمان المثقف. ولكن باريس، بما تحمله من رمزية وهي تتخلى عن زمانها، تتعثر في استيعاب محمولات الزمن الجديد. فهذا «الغزو» لم يستطع أن «يُفَرنس» (Franciser) «المثقف» الأميركي (نستخدم عبارة المثقف تجوزًا على سبيل المقارنة)، تمامًا كما لم يستطع سارتر أن «يَتَأَمرَك» (Americaniser) باسم تشومسكي. كان ثمة استعصاء واضح في نقل تجربة «مراكز الخبرة والتفكير» وملء الفراغ الذي أحدثه انسحاب المثقف الهُوَوي: «لم يكن سهلًا نقلُ مؤسسات 'مراكز الخبرة والتفكير' المرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالمجتمع الأميركي إلى أنظمة أو بلدان أخرى. إنها تعكس في الجوهر ثقافة أنكلوسكسونية وإدارة ديمقراطية ناجحة»[48]. لكنها على الرغم من ذلك تكاثرت ونزعت إلى محاكاة الأصل (وصل عددها في فرنسا في عام 2013 إلى 177 مؤسسة). ويبدو أن «المثقف» أخذ في تجريب العيش داخل المؤسسات والمراكز البحثية لتأدية واجبات خَدَمية – بحثية[49].

تنص بيانات «مراكز الخبرة والتفكير» التأسيسية على مهماتها[50]، وهي

(48) Alain Faupin, «La Pensée au service de l'action: Les Think Tanks américains,» *La Revue internationale et stratégique*, no. 52 (hiver 2003-2004), p. 97.

(49) من أبرز الشهادات على التحول في وظيفة المثقف بسبب تحول السياق العالمي ما جاء على لسان فيليب مانيار، رئيس أكبر «مركز خبرة وتفكير» في فرنسا (IFRI). فقد ذكر أن مهمته بعد إنتاج الفكرة هو بيعها: «عملي بعد ذلك هو بيع أفكارنا للمسؤولين في هذا البلد... إني أُمضي وقتًا طويلًا في البرلمان وفي مكاتب الوزراء». نقلًا عن: Derai, p. 104.

(50) جاء على سبيل المثال في التعريف بمؤسسة The Heritage Foundation ما يلي: «مؤسسة بحثية وتربوية مهمتها تكوين السياسات العامة المحافظة المرتكزة على مبادئ حرية المؤسسة وتنميتها، والتدخل المحدود للدولة والحرية الشخصية والقيم الأميركية المحافظة والدفاع الوطني القوي»، في:
Steven P. Bucci, «We Must Remain Vigilant Through Responsible Refugee Policies,» The Heritage Foundation (2 December 2015), http://herit.ag/1jjDaAd.

غالبًا ما تلبي حاجتين: وطنية وحزبية – مؤسساتية في إطار السياسات الكبرى لدوائر التمويل. أما الذين تنتدبهم، فهُم من المتخصصين المَهَرة بميادين تحتاج إلى خبرتهم. وههنا فرق جوهري آخر بين المثقف والخبير. فإذا كان المثقف ينتدب نفسه تطوعًا وتضحية لأداء مسؤولية «أخلاقية» خارج التصنيف المهني – الحرَفي، فإن الخبير الموظف في هذا القسم أو ذاك من أقسام هذه المؤسسة أو تلك تنتهي مهمته بانتفاء حاجة المشغل إليه.

3 – العرب وتجربة «مركز الخبرة والتفكير»: تحديات ورهانات

لا تشذ منزلة المثقف العربي اليوم عن منزلة المثقف في العالَم عمومًا، لكن شيئًا من الخصوصية كان يميز وضعيته، حيث ألقت عليه ثلاثةُ تحولات كبرى ضغطًا غير مسبوق، فعطلت أداءه: أصابه سقوط يسار العالم في مقتل. وزادت مخرَجات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر 2001 في إثخانه فلم يقدر على بلورة خطاب عربي – إسلامي يساعد في تصحيح الصورة، ويمد جسور التواصل نحو مراكز صناعة الرأي العام العالمي. ولم يخُض معركة «الربيع العربي». فأفلتت منه لحظة تاريخية نادرة تصَرمت من أمامه، وها هي تتحول إلى ما يشبه الحروب الأهلية في أكثر من بلد.

إذا أُضيفت إلى ما تقدم علاقاتُه الغامضة بالسلطة، وانتماؤه الطبقي/ البرجوازي، وإن لم يكن شديد البروز، أمكن فَهمُ هامشيته وعجزه عن تحويل ثقافته المدرسية (بالمعنى الأيديولوجي) إلى فعل محسوس يرى الناسُ آثارَه في الأرض، وأمكن من ثم إحالةُ التراجع في الأداء على أسبابه المركبة.

أما التفسيرات التي تَرُد التراجعَ إلى سلوك دولة الاستبداد العربية وتجريفها المساحات كلها لمصلحة خَدَم الحاكم وأعوانه، فعلى الرغم مما فيها من الوجاهة، وجَبَ ألا ننسى أن تاريخ المثقف كان في البدء: «إني أحتج»؛ وإذ يحتج الناس ولا يحتج المثقف إلا بأَخَرَة، فهي نتيجة غير مستفزة إن وُضعت في سياقها. فهل يكون «مركز الخبرة والتفكير» مخرجًا وبديلًا؟

ليس حظ الخبير في البلدان العربية أفضل من حظه في البلاد الأوروبية،

فالتجربة قصيرة، والعدد صغير، والتمويل ضعيف. ويكفي إلقاء نظرة على خريطة توزيع «مراكز الخبرة والتفكير» في العالم حتى يُتبين موقع هذه المراكز وعددها في البلدان العربية. إن أهم دراسة إحصائية هي تلك التي تواظب على إنجازها جامعة بنسلفانيا تحت إدارة جيمس ماك غان. فهي تمثل مرصدًا جيدًا لعدد «مراكز الخبرة والتفكير» في العالم ونشاطاتها وتمويلها وتخصصاتها. وسيعتمدها هذا البحث لمعرفة منزلة العرب داخل هذا السياق الجديد، ولتقترح مقارنة بين دراستين[51]، من أجل الكشف عن نسق تطور الوعي بأهمية هذه المراكز. وأهم ما يمكن الخروج به منهما نَعرضه في النقاط الآتية:

– أحصت الدراسة الأولى 5465 مركزًا عالميًا، نسبة الموجود منها في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا 3.99 في المئة، وهي أدنى نسبة على الإطلاق. وتطور العدد ليصل إلى 6826 في الدراسة الثانية (بعد خمسة أعوام)، وارتفعت نسبة مراكز الشرق الأوسط وشمال أفريقيا لتدرك الـ 7.49 في المئة، لكنها تبقى الأدنى أيضًا.

– ضبطت الدراسة الأولى شروطًا لغربلة هذه المراكز وإبقاء من يستجيب منها للشروط، فأحصت في الغربلة 407 مراكز، منها 8 عربية فقط، وهو الرقم الأدنى أيضًا. وقفز عدد المراكز العربية في الدراسة الثانية ليصل إلى 378 مركزًا (كان 218 مركزًا في عام 2007)، وهي زيادة كمية مهمة تدل على انخراط واسع نسبيًا في المنافسة على إنشاء «مراكز الخبرة والتفكير».

– لم يتغير الوضع نوعيًا، وبقيت المراكز العربية خارج التصنيف. فمن مجموع 65 مركزًا عالميًا متخصصًا بالقضايا الأمنية، كان نصيب العرب 4 مراكز فقط. وكان النصيب من المراكز المختصة بالاقتصاد الوطني 1 من 80، وفي الصحة 1 من 30، وفي السياسة الدولية والشؤون الخارجية 2 من 65. أما في البيئة، فصفر من 70، وكذا في التنمية صفر من 80، والاقتصاد العالمي صفر من

(51) James G. Mc-Gann: *2007 Global Go To Think Tank Index Report* (Pennsylvania: University of Pennsylvania, 2008), and *2013 Global Go To Think Tank Index Report* (Pennsylvania: University of Pennsylvania, 2014).

50، والتربية صفر من 50، والعلوم والتقانة صفر من 50، والسياسة الاجتماعية صفر من 50، والطاقة صفر من 20، والشفافية والحوكمة الرشيدة صفر من 30 (اكتفت دارسة 2007 بجداول قطاعية تتكوّن كلها من المراكز العشرة الأولى، وخلَت كلها من أي مركز عربي).

المستصفَى من هذا أمران: **الأول** هو أن التأخر العربي تأخر مركب، فلا يمكن النهوض بقطاع بمعزل عن القطاعات الأخرى. ولا شك في أن تحرير الطاقات في مواقع العمل كلها مقدمة ضرورية لفك الحصار الذاتي والموضوعي. أما الأمر **الثاني**، فهو: إذا كان مثقف الأنوار الباريسي قد تشظّى بفعل قوة التحولات العالمية، فإن أثر ذلك في مثقف «الهامش» أشد وقعًا. ولذلك، بدت الأرقام متطابقة إلى حد كبير مع الوهن العام.

يبدو أن الحتمية التاريخية تدفع في اتجاه تعزيز دور «مراكز الخبرة والتفكير» لا دور المثقف. وهذا موطن تحد ورهان بالنسبة إلى العرب. فالاتساع في تأسيس المراكز البحثية إن لم يكن متناغمًا مع تحول عميق ونوعي في عقل الدولة العربية، لا يمكن أن يسوق إلى تغيير جوهري في التعاطي مع قضايا التنمية والتحديث، ذلك أن العلاقة التفاعلية بين الدولة و«مراكز الخبرة والتفكير» مبدأ وشرط لنجاح التجربة. وما نعنيه بالتحول النوعي في عقل الدولة هو مغادرة فكرة الدولة السيدة الراعية والدخول في بناء ثقافة الدولة المشاركة. وأساس ذلك وعنوانه: الديمقراطية والحرية. ويُفترض أيضًا، وبالتوازي، أن يندمج المثقف العربي في مجرى زمن الـ Think Tank اندماجًا يتيح له تحويل المؤسسات البحثية إلى مصادر معرفة حقيقية لقضايا العرب الكبرى، وفضاءات خبرة عالية متخصصة وموظفة لخدمة تلك القضايا.

لكن المشهد «الثقافي» العربي اليوم مثير للقلق. فانسحاب المثقف لم يعوضه المجتمع المدني كما كان مُتوقعًا؛ إذ أنتجت التحولات الثلاثة (سقوط اليسار، وأيلول/ سبتمبر 2001، و«الربيع العربي») بالتدريج مجالًا بدا أن السياقات الثقافية والتاريخية والتعليمية كانت تتحرك بعيدًا عنه، وهو مجال رجل الدين الذي يحمل مشروعًا يتناقض أصلًا مع مَطالب النهضة العربية منذ القرن التاسع عشر،

ومع أدبيات التحرر الوطني، ومع أطروحات الدولة الوطنية. ففي هذا المجال، يُصاغ خطاب تحريضي ضد الآخر المذهبي والديني والتاريخي. ومن داخله تتشكل فيالق «الغزو» والتدمير المادي والرمزي. وبانتصاب «المحاكم الشرعية» فيه، يُستدعى الله لـ «إقامة الحدود» وإنفاذ «شرعه». وههنا تحديدًا يتواتر السؤال الحائر عن المثقف الهُووي صاحب الرسالة الخلاصية، لكنه سؤال، على الرغم من كثافته الوجدانية، قليل النفع تاريخيًا وسوسيولوجيًا.

ربما تبدو الدعوة إلى تحول المثقف خبيرًا غير واقعية لأنها تفترض أن يتجرد هذا المثقف العربي من مسؤولية الدفاع الطوعي عن القيم، وأن يتمهنن وجودُه القيمي لمصلحة مؤسسة بحثية أو أخرى. لكن ليس هذا هو المطلوب على وجه التدقيق. فالتحول مركزُه الوعيُ أن المتاح الموضوعي اليوم أمام الفعل «الثقافي» التغييري محدود نظرًا إلى بروز مؤثرات وفاعلين وسياقات محلية وكونية تمتلك قدرة على الفعل أكبر من قدرة المثقف.

لا شك في أن تحقيق ذلك صعب في الأفق المنظور على الأقل، لسبب جوهري: فإذا كانت اللحظة الدريفوسية هي التي صنعت زمن المثقف الهُوَوي، وإذا كانت لحظة «مراكز الخبرة والتفكير» هي التي صنعت زمن الخبير، فهذا يعني أن المثقف والخبير كليهما فاعلان في الحوادث وصانعان لها على نحو من الأنحاء.

لكن هاتين اللحظتين غير عربيتين منشأً وفلسفة. ولم يستطع المثقف العربي أن يؤثر تأثيرًا فعليًا في واقعه المحلي أو القومي أو الدولي، لأن وجوده وجود استتباع وإلحاق لا وجود إبداع وريادة، وهذا توصيف لا إدانة. فالزمن العربي الحديث والمعاصر نشأ في عُسر واضطراب وقلق وشك في ذاته وفي الآخر. وكانت الحوادث والأفكار الكبرى كلها تدهمه وكان يلاحقها. وإذا كان المثقف الدريفوسي أُكره على الانخراط في زمن الـ Think Tank، فخرج من مدار التطوع والقيمة إلى مدار الاحتراف بكثير من المشقة، فإن محنة المثقف العربي أشد؛ يدهمه الزمن الجديد، وأحلام الزمن المنسحب تظل معلقة: الحرية والديمقراطية والوحدة وفلسطين... من دون أن يكون قد أعد العدة لذلك. هذا زمن آخر يبدو أن العرب، أطيافًا ومؤسسات ونخبًا وتوقعات، سيلقون فيه عَنَتًا أيضًا.

خلاصات ونتائج

أفضى البحث إلى نتائج أربع كبرى في شأن المثقف وسياق النشأة، والمثقف وسياق التراجع، والخبير سياقًا وبديلًا، وتحديات الراهن العربي. أما المثقف، فنشأ في سياق قيمي ينتصر لأطروحة ملخصها أن الإنسان «كائن معنى». ولا شك في أن مرجعياته هي، في العموم، إفرازات اتجاهات التنوير والأنسنة، ووفرت للمثقف إمكانات عريضة ليمارس أدوارًا رسالية. وغني عن البيان أن منتوجات «مدرسة» علم الاجتماع الفرنسي خصوصًا كان لها الدور الحاسم في بلورة معالم المثقف الهُوَوي بما اصطنعت من مصطلحات وتصورات. ولا عجب، في ظل هيمنة هذه المدرسة وفي زمن سُلطت فيه مظالم كثيرة على الشعوب، أن يكون لهذا المثقف سلطة وأثر.

أما ترهل أدائه، فمنَ التجني إرجاعُه إلى «خيانة المثقف» المبادئَ التي نَدبَ نفسه بادئ الأمر للدفاع عنها. إن القراءة النقدية التاريخية تقدم المسألة على نحو آخر. فالتحولات التي شهدها العالَم في نهاية الحرب الباردة بسقوط الاتحاد السوفياتي، واستشراء مفاعيل عولمة قيم الغالب أخرجَا العالَم من سياقه الأول وأدرجاه في سياق جديد: ضمور الاحتفاء بـ«كائن المعنى»، وطغيان نزعات تسليع كل شيء، وسيطرة مبدأ المصلحة. عصفت التحولات بالروابط المجتمعية، وبالمؤسسات التقليدية، وبالدولة نفسها، والمثقف سليل ذلك كله. فهو إذًا ضحية من ضحايا الزمن الجديد. وأن يُطلب منه اليوم أن ينهض بالأعباء التي كان ينهض بها، فهذا أمر لا معقولية له لأنه – بإيجاز – غير تاريخي. نعم، يوجد اليوم مثقفون. بل يوجد مثقفون كبار، غير أن المثقف الهُووي (بمحددات هويته الستة مجتمعة) ما عاد موجودًا. إن بديلًا له جاء بمجيء الزمن البديل لزمنه: «مركز الخبرة والتفكير».

أما الخبير، فالتنصيص على أنه أميركي النشأة والسياق شرط أساسي لفهم طبيعة نشاطه وتبين الاختلاف النوعي بينه وبين المثقف. إن من طبائع الأمور أن يحمل الغالب معه أدوات تغلبه. وإن من استتباعات الغلبة أن يقلد المغلوبُ الغالب. وقد تمددت مجالات النفوذ الأميركي، وتوسعت دوائر الهيمنة، وكان

لـ «مراكز الخبرة والتفكير» أدوار مهمة في تحقيق ذلك. كانت نصفًا، وكانت القوة المادية نصف أميركا الثاني (Think/ فكر + Tank/ دبابة). وأعطى الالتحام التفاعلي بين مراكز الفكر ومصالح الدولة/ المؤسسة وضعية ولاء وانتماء. أصبح الفكر متخصصًا وقطاعيًا و«ملتزمًا» أدوار تحددها المصلحة. عمل الخبير عمل مُمَهنَن ويدخل تحت سقف «الثقافة» الأميركية.

أما التساؤل عن دور المثقف العربي في سياق التحولات التي يعيشها بعض البلاد العربية، فهو إن وُضع في سياقه العالمي أو العربي (هزيمة 1967، وغزو الكويت، وحرب الخليج ...إلخ) فَقَدَ كثيرًا من معقولية طرحه. وربما يكون المعول عليه في المستقبل وجودَ «مراكز الخبرة والتفكير» عربية فعالة ومنتجة، وقادرة ليس على اقتراح الدراسات والحلول فحسب، بل على توجيه سياسات التنمية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية توجيهًا يستهدف الإنسان العربي في المقام الأول أيضًا.

المراجع

1 - العربية

بشارة، عزمي. «عن المثقف والثورة». **تبيـن**. العدد 4 (ربيع 2013).

بلقزيز، عبد الإله. **نهاية الداعية: الممكن والممتنع في أدوار المثقفين**. ط 2. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2010.

الجابري، محمد عابد. **المثقفون في الحضارة العربية: محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد**. ط 2. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2000.

جاكوبي، راسل. **نهاية اليوتوبيا: السياسة والثقافة في زمن اللامبالاة**. ترجمة فاروق عبد القادر. عالم المعرفة 269. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2001.

حرب، علي. **الاستلاب والارتداد: الإسلام بين روجيه غارودي ونصر حامد أبو زيد**. بيروت/ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1997.

_____. **أصنام النظرية وأطياف الحرية: نقد بورديو وتشومسكي**. بيروت/ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2010.

سعيد، إدوارد. **خيانة المثقفين: النصوص الأخيرة**. ترجمة أسعد الحسين. دمشق: دار نينوى للتحقيق والنشر، 2011.

صفدي، مطاع. **ماذا يعني أن نفكر اليوم: فلسفة الحداثة السياسية: نقد الاستراتيجية الحضارية**. بيروت/ باريس: مركز الإنماء القومي، 2002.

العلام، عز الدين. **الآداب السلطانية: دراسة في بنية وثوابت الخطاب السياسي**. عالم المعرفة 324. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2006.

ليكلرك، جيرار. **العولمة الثقافية: الحضارات على المحك**. ترجمة جورج كتورة. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2004.

2 – الأجنبية

Abelson, Donald. «Think Tanks and U.S. Foreign Policy: An Historical View.» *U.S. Foreign Policy Agenda*. vol. 7. no. 3 (November 2002).

Barbusse, Henri. *Le Couteau entre les dents: Aux intellectuels*. Paris: Editions Clarté, 1921.

Baruch, Marc Olivier & Vincent Duclert (dirs.). *Justice, politique et république: De l'affaire Dreyfus à la guerre d'Algérie*. Bruxelles: Complexe/Paris: IHTP, 2002.

Benda, Julien. *La Trahison des clercs*. Paris: Bernard Grasset, 2003.

Boucher, Stephen & Martine Royo. *Les Think tanks: Cerveaux de la guerre des idées*. préface de Pascal Lamy. Échéances. 2nd ed. Paris: Le Félin-Kiron, 2009.

Bredin, Jean-Denis. *L'Affaire*. Paris: Fayard/Julliard, 1993.

Carpentier-Tanguy, Xavier. «Think Tanks: Un Concept 'Made in USA'.» *Journal du Net* (avril 2004) dans: http://bit.ly/1MjwPw4.

Derai, Yves. «Think Tanks: Les nouveaux laboratoires du pouvoir.» *L'Optimum*. no. 71 (2004).

Faupin, Alain. «La Pensée au service de l'action: Les Think Tanks américains.» *La Revue internationale et stratégique*. no. 52 (hiver 2003-2004).

Garnot, Benoît. *Voltaire et l'affaire Calas: Les Faits, les interprétations, les enjeux*. Paris: Hatier, 2013.

Gide, André. *Voyage au Congo: Suivi de Le Retour du Tchad: Carnets de route*. Paris: Gallimard, 1981.

Le Goff, Jacques. *Les Intellectuels au Moyen âge*. Paris: Seuil, 1985.

Gramsci, Antonio. *Selections from the Prison Notebooks*. Translated by Quintin Howare & Geoffrey Nowell-Smith. New York: International Publishers, 1971.

Haass, Richard N. «Think Tanks and U.S. Foreign Policy: A Policy-Maker's Perspective.» *U.S. Foreign Policy Agenda*. vol. 7. no. 3 (November 2002).

Hofstadter, Richard. *Anti-Intellectualism in American Life*. New York: Knopf, 1966.

Idt, Geneviève. «L'Intellectuel avant l'affaire Dreyfus.» *Cahiers de lexicologie*. vol. 15. no. 2 (1969).

Mc-Gann, James G. *2007 Global Go To Think Tank Index Report*. Pennsylvania: University of Pennsylvania, 2008.

_____. *2013 Global Go To Think Tank Index Report*. Pennsylvania: University of Pennsylvania, 2014.

Medvetz, Thomas. «Les Think tanks aux États-Unis: L'Emergence d'un sous-espace de production des savoirs.» *Actes de la recherche en sciences sociales*. nos. 176-177 (2009).

Ory, Pascal & Jean-François Sirinelli. *Les Intellectuels en France: De l'affaire Dreyfus à nos jours*. Paris: Armand Colin, 1986.

Rich, Andrew. «War of Ideas: Why Mainstream and Liberal Foundations and the Think Tanks They Support are Losing in the War of Ideas in American Politics.» *Stanford Social Innovation Review*: vol. 3. no. 1 (Spring 2005).

Rich, Michael D. «RAND: How Think Tanks Interact with the Military.» *U.S. Foreign Policy Agenda*. vol. 7. no. 3 (November 2002).

Rougerie, Jacques. *La Commune de 1871*. Que sais-je?. 3rd ed. Paris: Presses Universitaires de France, 1997.

Said, Edward W. «L'Humanisme, dernier rempart contre la barbarie.» *Le Monde diplomatique* (Septembre 2003).

Samaan, Jean-Loup. «Les Origines militaires des Think Tanks: Le Cas américain.» *Chantiers politiques*. no. 5 (Printemps 2007).

Smith, James Allen. *The Idea Brokers: Think Tanks and the Rise of the New Policy Elite*. New York: Free Press, 1991.

Touraine, Alain. *Critique de la modernité*. Paris: Les Éditions Fayard, 1992, dans: http://bit.ly/1NVzH8a.

Vaïsse, Justin. «Les Courants de pensée en politique étrangère aux Etats-Unis: Hégémonistes contre gestionnaires.» *Alternatives internationales*. no. 1 (Mars-Avril 2002).

Wagner, Patrick. «La Notion d'intellectuel engagé chez Sartre.» *Le Portique*. no. 1 (2003) dans: http://bit.ly/1Rrm4js.

Winock, Michel. *Le Siècle des intellectuels*. Paris: Seuil, 1997.

Zola, Emile. *J'accuse!: Et autres textes sur l'affaire Dreyfus*. Paris: J'ai lu, 2001.